صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٢ -

كيف بدأ الاستشراق في ايطاليا وفرنسا

بداية الاستشراق في ايطاليا :

خلال القرن السادس عشر نشطت الدراسات الشرقية بعض النشاط في ايطاليا لأسباب خاصة بهذه البلاد ، فقد كانت القضية التي تستأثر باهتمام البابوية إذ ذاك هي مسألة توحيد الكنائس الشرقية والغربية . وكان لا بد من معرفة اللغة العربية وسائر اللغات الشرقية للاتصال بالكنائس واستمالتها . هكذا أمر البابا (يوليوس الثاني) في سنة ١٥١٤ بنشر الصلوات السبع بالعربية للأقباط اليعاقبة في مصر . وفي سنة ١٥١٦ نشر (جوستينياني) أسقف (نابيو) الزبور بأربع لغات ، منها العربية .

وكانت روما في ذلك الوقت محط أنظار الزوار من الشرق سواء رجال الدين المسيحي أو بعض الأمراء والرحالين والتجار المسلمين . وقد أرسل السلطان العثماني (بايزيد الثاني) وفدين إلى روما للمفاوضة بشأن أخيه (جم) الذي كان قد ثار مطالباً بالعرش ثم لجأ بعد اخفاقه إلى البابا . وفي سنة ١٥٢٠ اختطف القراصنة رجلاً من مراكش اسمه (حسن بن محمد) وسلموه إلى البابا (ليون العاشر) فتنصر الرجل على يدي البابا وأطلق عليه اسم (ليون الإفريقي) . وكان على علم بالجغرافية فألف في سنة ١٥٢٦ كتاباً

عن بلاد افريقيا اقتبس مواده من مشاهير الجغرافيين العرب مثل (البكري) و (المسعودي) و (الإدريسي) ، وأضاف إلى ذلك وصف رحلاته ومشاهداته الشخصية .

الطباعة العربية :

من أهم العوامل التي ساعدت على تقدم الدراسات الشرقية في أوربة في القرن السادس عشر تأسيس الطباعة العربية . ويرجع الفضل في ذلك إلى الكاردينال (فرديناندو دي مديتشي) (F. di Medici) الذي أسس حوالي سنة ١٥٨٠ مطبعة عربية في (طوسقانا) . وكان الدافع إلى ذلك رغبة البابا (غريغوريوس) الثامن في الدعاية إلى توحيد الكنائس . ولهذه الغاية قام أيضاً بتأسيس مدرستين في روما ، احداهما للمارونيين والثانية للأرمن . فكان لا بد من طبع النصوص العربية اللازمة للدراسة والبحث . وقد تولى ادارة المطبعة شاب طلياني اسمه (جوفاني باتيستا رايموندي) ، كان قد أقام مدة طويلة في الشرق ، وتعلم اللغة العربية ، وأتقن كتابة الخط العربي ، وبذلك استطاع أن يصنع حروفاً جميلة من السهل قراءتها . وبدأ سنة ١٥٨٦ في طبع كتابي ابن سينا : (القانون) و (النجاة) معاً ، وبسبب ضخامة المجلد لم ينته الطبع إلا في سنة ١٥٩٣ . وكان قد طبع أثناء ذلك الأناجيل (في سنة ١٥٩٠) و (الكافية) لابن الحاجب و (الأجرومية) لابن آجروم ، ثم بعض الأجزاء من كتاب (نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق) للادريسي . وكانت المطبعة قد نالت في سنة ١٥٨٨ امتيازاً من السلطان العثماني (مراد الثالث) يسمح لها بتوزيع وبيع ترجمة (الطوسي) لمبادىء (اقليدس) في أنحاء المملكة العثمانية كلها . ولكن طبع هذا الكتاب لم يتم إلا في سنة ١٥٩٤ .

ثم توقفت المطبعة عن العمل مدة من الزمن . ولعل السبب في ذلك هو أن مطبوعاتها لم تلق في بلاد الشرق ما كان منتظراً لها من رواج . فقد كانت الأغلاط المطبعية كثيرة يلاحظها القارىء منذ صفحة الغلاف في كتابي (القانون) و (مبادىء اقليدس) ، عدا أن الجمهور في الشرق كان يقابل كل ما هو غربي بمنتهى الحذر والريبة . ولم تستأنف المطبعة نشاطها إلا بعد أن اعتلى كرسي البابوية (بولس الخامس) [١٦٠٥ — ١٦٢١] ورصد الأموال اللازمة لنشر الكتب الشرقية . وبعد موت (رايموندي) في سنة ١٦١٤ تابع تقاليده تلميذه (ستيفانوس بولينوس) الذي استعان به السفير الفرنسي (فرانسوا سافاري دو بريف F. S. de Brèves) لتأسيس مطبعة عربية أخرى في روما .

وكان (دو بريف) قبل ذلك سفيراً لبلاده في استانبول ، فظل يتبع سياسة فرنسا التقليدية في الشرق ويؤيد جهود الكنيسة الكاثوليكية في سبيل الاتحاد . وقد طبع على نفقته الخاصة كتاب الصلوات للكاردينال (بلارمين) الذي ترجمه إلى العربية اثنان من الموارنة كانا يعلمان اللغـــة العربية في روما . ولما عاد (دوبريف) إلى بلاده سنة ١٦١٥ اصطحب معه (بولينوس) وحمل حروفه العربية إلى باريس ، حيث أسس « مطبعة اللغات الشرقية » .

وسرعان ما نشأت مطابع أخرى في البلاد الأوربية ولا سيما في هولندة من قبل المستشرق (رافلنجيوس Raphelengius) ، وفي ألمانيا من قبل الطبيب (كورستن Kursten) الذي كان قد تعلم العربية ليستطيع دراسة كتب (ابن سينا) وغيره من الأطباء والفلاسفة العرب في لغتها الأصلية . على أن (كورستن) لم يجد من يشجعه من حكام بلاده فحمل مطبعته وذهب إلى السويد ...

الرحلات إلى الشرق :

من العوامل التي دفعت الأوربيين إلى الاهتمام بالدراسات الشرقية كتب المغامرات التي نشرها بعض الرحالين في القرن السادس عشر يصفون فيها بلاد الشرق وعجائبها وعادات أهلها وقصور حكامها وخيراتها ، ويتكلمون فيها عن أهمية العلاقات السياسية والاقتصادية مع هذه البلاد .

وكانت الوفود التي تبادلها ملوك أوربا مع السلاطين العثمانيين وملوك الفرس والمغول ثم البعثات التبشيرية إلى الهند والصين قد مهدت الطريق أمام الرحالة المغامرين .

فإنه بينما كان (فرانسوا الأول) يرسل الوفود إلى تركيا لمحالفة السلطان (سليمان القانوني) ، أخذ (شارلكن) يتبادل الرسائل مع الشاه اسماعيل لمحالفته ضد الأتراك ، ومن المعروف أن الحروب كانت قد احتدمت منذ عهد السلطان (سليم الأول) بين الفرس والعثمانيين بسبب الاختلاف المذهبي .

سافر الرحالة الطلياني (لودوفيقو فارتيما) (Lodovico Varthema) في سنة ١٥٠٣ من البندقية إلى مصر ومنها انتقل إلى دمشق حيث تعلم اللغة العربية ، ثم انضم وهو في زي المسلمين إلى قافلة الحجاج ، فكان أول أوربي زار مكة . وانتقل بعد ذلك إلى اليمن ومنها إلى فارس ثم إلى الهند . وقد أراد بعض الأمراء المسلمين هناك الاستفادة من مهارة (فارتيما) في الشؤون العسكرية ، وطلبوا منه مساعدتهم على صنع المدافع لمحاربة البرتغاليين ولكنه هرب إلى البرتغاليين وأخبرهم بأن ضميره لم يسمح له بتأييد المسلمين على المسيحيين .

وهناك مغامر آخر طلياني اسمه (بترو دلا" فلّي Pietro della Valle) سافر في سنة ١٦١٤ من البندقية إلى استانبول حيث تعلم اللغة التركية .

وهو يشير إلى أنه لم يكن ليستطيع تعلم هذه اللغة في ايطاليا خلافاً للغة العربيه التي كان كثير من الأساتذة الماهرين يقومون بتعليمها هناك ؛ ثم سافر إلى مصر فسورية ، وزار القدس ، وانتقل بعد ذلك إلى العراق ففارس. وقد نال مكانة عالية في بلاط الشاه عباس الكبير ، واشترك مع الفرس في محاربة الأتراك ، كما سعى إلى عقد تحالف بين الفرس والقوزاق الروس ضد الدولة العثمانية ، وفي الأخير رحل إلى الهند . وقد وصف مشاهداته وانطباعاته في مجموعة من الرسائل ، كما ألف كتاباً تاريخياً عن الشاه عباس . ولم ينشر في حياته سوى رسائله . وهذه الرسائل لا تقتصر على وصف البلاد وأهلها ، بل تبحث أيضاً في المسائل السياسية ولا سيما حروب الشاه الذي كان يساعده الانكليز على مقاومة البرتغاليين .

وكان (دِلا" فَلّي) أول أوربي وصف أطلال (بابل) و (برسبوليس) ، كما أنه نقل الى اوربة كثيراً من المخطوطات الشرقية وصوراً عن النقوش والكتابات الأثرية .

وقد أخذ الانكليز أيضاً يشتركون في استكشاف بلاد الشرق ودراسة أحوالها بعد تطور الملاحة لديهم في القرن السادس عشر .

ومن أشهر الرحالة الانكليز الى الشرق الأخوة الثلاثة (توماس وآنطوني وروبرت شيرلي (Sherley) . وقد سافر (آنطوني) و (روبرت) في سنة ١٥٩٨ الى ايران وبرزا في بلاط الشاه (عباس) ؛ وكان لهما نفوذ كبير في المملكة لمهارتها في الفنون العسكرية . وقد قاما بتنظيم الجيش الفارسي على أسس جديدة ، فكان ذلك من أسباب انتصار الفرس على الأتراك في حروبهم التالية . ثم عهد الشاه الى (آنطوني) برئاسة وفد أرسله الى البلاد الأوربية لعقد محالفات ضد الدولة العثمانية ولكنه أخفق في مهمته . ويبدو أن (روبرت) قد زوج بنت أخيه من الشاه وأرسل

أيضاً بمهمة رسمية الى أوربة . أما الأخ الثالث (توماس) فقد سافر الى تركية وحاول كذلك أن يلعب دوراً سياسياً هناك ، ولكن اسم أسرته كانت له سمعة سيئة في استانبول بسبب مؤامرات أخويه في فارس ضد الدولة العثمانية فقبض عليه وألقي في السجن ولم يخرج منه إلا بعد ثلاث سنوات بجهود السفير الانكليزي . وقد نشرت مغامرات الأخوة الثلاثة في كتاب واحد في لندن سنة ١٦٠٧ .

وفي القرن السابع عشر زار بلاد الشرق كثير من الرحالة الفرنسيين . وكان مرشد هؤلاء الرحالة وشيخهم هو الأب رافائيل دومان (R. du Mans) الذي سافر في سنة ١٦٤٤ من حلب الى بغداد وانتقل بعد سنتين الى فارس ، حيث بقي حتى موته في سنة ١٦٩٦ . وقد كان له تأثير كبير في بلاط الشاه (عباس الثاني) ، لأنه خدم الحكومة الفارسية ترجماناً وخدمها بمعلوماته الرياضية والفلكية . وقد نشر المستشرق (شيفر Schefer) تقريراً كان قد كتبه الأب (دومان) عن (حالة فارس في سنة ١٦٦٠) وأرسله الى الوزير (قولبير) يتضمن معلومات دقيقة عن البلاد والشعب والحكومة .

وخلافاً للرحالين السابقين الذين كانوا يظهرون إعجابهم بالشرق فإن الأب (دومان) كان يحتقر الشرقيين . واذا رأيناه يفضل الفرس على غيرهم فذلك لأنهم ، حسب تعبيره ، « كالأعور بين العميان » . ونستطيع القول بأن الباحثين الأوربيين أخذوا ، منذ القرن السابع عشر ، يشاطرون الأب (دومان) رأيه هذا . فقد بدأ يتجلى في هذا العهد تفوق الحضارة الأوربية الحديثة وصار الناس يتساءلون عن أسباب تأخر الشرق .

وقد حاول الإجابة عن هذا السؤال رحالة فرنسي آخر هو (فرانسوابرنيه F. Bernier) الذي زار سورية وعاش أكثر من سنة في القاهرة حيث تعلم العربية ، ثم ذهب حوالي سنة (١٦٦٠) الى الهند ، وأقام هناك (١٢)

عاماً ، فتجول في أنحائها ، ووصف رحلته في قالب رسائل ، وقدم تقريراً خاصاً إلى الوزير (قولبير) عن حالة البلاد وعن شخصية (المغول الكبير) ووارداته ، كما تكلم على انحطاط البـلاد الشرقية عامةً ، وعزا ذلك في الدرجة الأولى إلى فقدان الملكية الخاصة للأراضي سواء في الهند أو مصر وسائر بلاد الشرق الأدنى .

والى جانب أمثال هؤلاء الرحالين الذين تختلط لديهم الدوافع والأغراض المتنوعه من حب المغامرة وميل إلى التبشير الديني وطمع في الربح المادي ونزعة إلى التجسس وطموح سياسي ، أخذ يبرز ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، رحالون آخرون قصدوا الشرق قبل كل شيء رغبةً في الاطلاع وسعياً وراء غايات علمية . نذكر بين هؤلاء الرحالة الفرنسي (آنكتيل - دوبرون Anquetil — Duperron) [١٧٣١ - ١٨٠٥] الذي درس اللغات الشرقية في باريس ودخل سنة ١٧٥٤ في خدمة الشركة الفرنسية للهند الشرقيـة كجندي عادي . ولكن الملك (لويس الخامس عشر) ، لما علم بشأنه ، أمر بتخصيص راتب سنوي له ، كما أن الشركة أيضاً زادت مرتبه وساعدته على التجول في أنحاء البلاد . وقد انصرف همه إلى البحث في مخطوطات الكتب الدينية الشرقية . فلما عاد إلى فرنسة سنة ١٧٧١ نشر ترجمة كتاب (زند ـ آفستا) المنسوب إلى (زرادشت) ، وكان هذا الكشف مرحلة هامة في تاريخ الدراسات الشرقية ..

ورحالة فرنسي هام آخر هو العالم (فرانسوا فولني F. Volney) الذي ولد سنة ١٧٥٧ ونال ثقافة عالية وقرر أن ينفق الثروة التي ورثها في الرحلات إلى الشرق . وبعد أن درس المؤلفات التي تبحث في الشرق سافر إلى مصر ، فسورية حيث قضى مدة ثلاث سنوات (١٧٨٣ - ١٧٨٦) ،

منها ثمانية أشهر في أحد الأديرة في جبل الدروز ، لاتقان اللغة العربية . وكتابه المشهور (الرحلة إلى سورية) لا يتضمن ما اعترضه أثناء تنقلاته من حوادث ، بل يقتصر على وصف البلاد وطريقة معيشة سكانها وعلى بيان الأسباب التي أدت إلى تأخر مصر وسورية الاقتصادي تحت حكم الأتراك . وهو يعارض الآراء التي كانت تقول بحدوث تبدل في إقليم البلاد الشرقية ولا يسلم بأن حرارة الجو تضعف مقدرة السكان على الإنتاج إذ يشير إلى أن الأحوال الطبيعية في مصر لا تختلف اليوم عمـا كانت عليه في عهد ازدهار الحضارة المصرية القديمة . وقد ذهب (فولني) نفسه إلى أن تأخر الشرق يرجع إلى فساد الإدارة الحكومية والى تأثير العقائد الدينية . وقال إن من الوسائل التي يمكن أن تساعد على رفع المستوى الاقتصادي حفر قناة في برزخ السويس ، إلا أنه كان يعتقد بصعوبة تحقيق هذا المشروع .

وقد استمرت الرحلات إلى الشرق وبلاد العرب منذ القرن الثامن عشر حتى الوقت الحاضر ؛ ولكنها لم تكن دوماً لغايات علمية ، بل كثيراً ما كان يقصد بها التبشير الديني أو التجسس والتآمر السياسي . ويكفي أن نذكر اسماء (بورتن Burton) و (دوتي Doughty) و (فون اوبنهايم M. Von Oppenheim) و (لورانس Lawrence) و (فلبي Philby) لنتأكد من أن الاستشراق لا يكتفي بالدراسة العلمية ، بل يهدف أيضاً الى أغراض استعمارية : سياسية واقتصادية ودينية ...

بداية الاستشراق في فرنسة :

في القرن السادس عشر ازدادت العلاقات السياسية بين الدول الأوربية المسيحية والدولة العثمانية . فقد اتسعت ممتلكات الدولة في زمن السلطان

سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) الذي استولى على الشام ومصر ؛ ثم في زمن السلطان سليمان القانوني الذي تقدم في المجر والنمسا .

وانتهز (فرانسوا الأول) ، ملك فرنسا ، الفرصة للتحالف مع السلطان سليمان القانوني والاستنجاد به ضد خصمه (شارلكن) . وبدأت الوفود تتعاقب الى استانبول ومنح السلطان رعايا فرنسة الامتيازات الأجنبية المشهورة التي تخولهم الإقامة في بلاده ومزاولة التجارة ، وتعطي القناصل حق الفصل في القضايا المتعلقة بهم .

هكذا كانت هناك حاجة عملية لتعلم اللغات الشرقية .

وقد أوفد (فرانسوا الأول) عدداً من رجال العلم الى استانبول مع سفرائه للاطلاع على أحوال الشرق وإتقان الحادثة بلغاته وشراء المخطوطات الضرورية للدراسة . وكان بين هؤلاء الموفدين (غيليوم بوستل Guillaume Postel) ، الذي كان أول من قام بتدريس اللغة العربية في جامعة (باريس) .

وبين تلاميذ (بوستل) الذين تعلموا العربية نال (جوزيف سكاليجر J. Scaliger) [١٥٤٠ ـ ١٦٠٩] شهرة واسعة لا كاختصاصي في اللغة اليونانية فحسب ، بل كمستشرق أيضاً . وكان أبوه طبيباً طليانياً في الأصل ولكنه ولد هو وعاش في فرنسة واعتنق البروتستانتية وتولى التدريس في انكلترة وايطالية وهولندة حيث مات .

وقد أدرك أن أستاذه لم يكن يتقن حقاً كل اللغات التي ادعى معرفتها . وهو قد خالفه في مسائل كثيرة ، منها العلاقة بين العربية والعبرية ؛ إنه لم تخف عليه القرابة بين اللغتين ولم ينكر أن من يعرف العبرية يسهل عليه البدء في تعلم العربية ولكنه رأى أن التعمق في العربية يحتاج الى وسائل أخرى . كذلك لم يكن يشارك (بوستل) في ايمانه الخيالي بحكمة الشرق

السحرية . فكان يذهب الى أن الحكمة لم تنحصر كلها عند الكلدانيين وفي الشرق ، وأن البشر في الغرب والشمال أيضاً هم كائنات تتصف بالعقل والحكمة . وقبل كل شيء كان (سكاليجر) بعيداً كل البعد عن اندفاع أستاذه في طريق التبشير ولم يخطر على باله أبداً أن يستثمر معلوماته اللغوية في خدمة الديانة المسيحية . إنه كان يسعى الى معرفة حقائق التاريخ

وقد انصرف في أحد كتبه الى جمع كل ما أمكنه الحصول عليه من أنواع « التقويم » في جميع البلدان ومن جميع العصور ، ثم رتبها ووصفها وقارنها بالتقويم الجولياني وشرح كيف يمكن حساب الاختلافات بينها . وكان هذا الموضوع حديث الساعة إذ ذاك بمناسبة الإصلاح (الغريغوري) للتقويم .

وقد قام (سكاليجر) بمراسلة (أغناطيوس) ، بطريرك أنطاكية اليعقوبي الذي جاء الى رومة في أواخر سنة ١٥٧٧ للقيام بمفاوضات الاتحاد والذي عرف بعنايته بمسائل التقويم الزمني . وهو يذكر في كتابه أجوبة البطريرك على أسئلته بنصها العربي . ثم اتصل (سكاليجر) بالسامريين في مصر وفلسطين ، فأرسلوا اليه من مصر تقويم سنة ١٥٨٤ مكتوباً بحروف سامرية . كذلك حصل بواسطة تاجر طلياني على تقويم الكنيسة الحبشية لسنة (١٥٧٨) نقله راهب حبشي بحروف عربية مع ملاحظات حول كل من التقويم القبطي والانطاكي والحبشي .

على أن الرأي العام في فرنسة قد اتجه في القرنين السادس عشر والسابع عشر بكل حماسة الى أخبار الصين وحضارتها أكثر من غيرها من بلاد الشرق . وكان المبشرون قد تسللوا الى تلك البلاد وأخذوا ينشرون

الكتب عنها . في هذه الفترة لا نجد إلا القلائل من المستشرقين الذين انقطعوا إلى دراسة العربية والشؤون الإسلامية .

ولم تنشط هذه الدراسات إلا في عهد الوزير (قولبير) الذي اهتم بالشرق الأدنى وقام في سنة ١٦٩٩ بتأليف بعثة باسم « شباب اللغات » تدرس اللغة العربيـــة في باريس على نفقة الملك ثم ترسل الى استانبول لإتمام الدراسة ، وبعد ذلك يلحق أفرادها بالسلك السياسي . وقد تكرر تأليف مثل هذه البعثة في سنة ١٧١٨ ثم في سنة ١٧٢١ .

وهكذا فقد اتسم الاستشراق في فرنسة منذ بداية الأمر بالنزعة الدينية ـ التبشيرية والصبغة الاقتصادية ـ السياسية معاً .

(للبحث صلة) محمد كامل عياد